﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ٦٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ ٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ٦٤ طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ٦٥ فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ٦٦ ثُمَّ إِنَّ لَهُمۡ عَلَيۡهَا لَشَوۡبٗا مِّنۡ حَمِيمٖ ٦٧ ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ ٦٨﴾ [الصافات: 62 - 68]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

لمّا انقضَتْ قصَّةُ المؤمن وقرينِه، وكان ذلك على سبيلِ الاستطرادِ من شيءٍ إلى شيءٍ؛ عاد إلى ذِكر الجنَّة والرِّزق، الَّذي أعدَّه الله تعالى فيها لأهلها، فقال: (أذلك الرزق خير نزلا أم شجرة الزقّوم)؟[1].

القرآنُ الكريمُ يتابع بين قصص أهل النَّعيم وأهل الجحيم فتتجلَّى المفارقةُ

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُّزُلًا﴾: (نزل) أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ عَلَى هُبوطِ شَيءٍ ووُقوعِه، ونَزَلَ عَن دابَّتِه نُزولًا، ونَزَلَ المَطَرُ مِنَ السَّماءِ نُزولًا[2]، والنُّزُل والنُّزْل: ما هُيِّئَ لِلضَّيْف؛ إذا نَزَلَ عَلَيْه، ويُقالُ: إنَّ فُلانًا لَحَسَنُ النُّزْل والنُّزُل، أي: حَسَنُ الضّيافَة، وقالَ الزَّجّاجُ في قَولِه تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾، أذلك خَيْرٌ في بابِ الأنزال الَّتي يُتَقَوَّت بها، وتُمْكِن مَعَها الإقامة، أم نُزُل أهلِ النّارِ؟ وفي الحَديث: "اللَّهُمَّ إنّي أسألك نُزُلَ الشُّهَداءِ"[3]، يُريدُ ما لِلشُّهَداءِ عِندَ اللهِ مِنَ الأجر والثَّوابِ، والمَنزِلُ والمَنزِلَة: مَوضِعُ النُّزول[4].

2) ﴿ٱلزَّقُّومِ﴾: (زقم) يَدُلُّ عَلَى جِنسٍ مِنَ الأكلِ[5]، والزَّقّومُ: اسمُ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 106.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نزل).
(3) البزار، مسند البزار، مُسْنَدُ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ: 11/ 386، برقم: (5234)، وأخرجه الترمذي، السنن، برقم: (3419)، وابن خزيمة، الصحيح، برقم: (1119) باختلاف يسير.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (نزل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زقم).

طعام للعرب قديمًا، فيه تمرٌ وزُبْدٌ، والزَّقُّمُ: أكْلُهُ، فعَن ابن عبّاس ﷺ: لمّا نزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ [الدخان: 43 - 44]؛ قال أبو جهل: التَّمر بالزُّبْدِ نتزقَّمُهُ، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾.

وأزْقَمْتُهُ الشَّيءَ، أي: أبلعتُه إيّاه، فازدقمَهُ، أي: ابتلَعَهُ، والتَّزَقُّمُ: التَّلَقُّم[1]، فالزَّقّوم في الآية الكريمة: "أطعمةٌ كريهةٌ في النّار، ومنه استُعير: زَقَمَ فلانٌ، وتَزَقَّمَ؛ إذا ابتلع شيئًا كريهًا"[2].

3) ﴿فِتْنَةَ﴾: (فتن) أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلى ابتلاءٍ واختبارٍ، مِن ذلكَ الفِتْنةُ، يُقالُ: فَتَنْتُ أفْتِنُ فَتْنًا، وفَتَنْتُ الذَّهَبَ بالنّارِ؛ إذا امتَحَنْتُهُ، وهو مَفْتونٌ وفَتينٌ، والفَتّانُ: الشَّيطانُ[3]، والفتنةُ: ما يَفتِن، وأصلها: الاختبارُ، وهو المقصود هنا، ثمَّ استُعْمِلت فيما أخرجَهُ الاختبارُ إلى المكروهِ، ثمَّ استُعمِلَت في المكروه، وجاءت بمعنى: الكفرِ، في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: 217]، وبمعنى: الإثْمِ، كقولِهِ تعالى: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ [التوبة: 49]، وبمعنى: الإحراقِ، كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [البروج: 10]، وبمعنى: الإزالةِ، والصَّرف، كقوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ [الإسراء: 73]، وبمعنى: وقوعِ الشَّرِّ كسؤال عمرَ لحذيفةَ عن الفتنةِ، وبمعنى: المُشْغِلِ، لقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: 28]، وبمعنى: المُعْجِبِ، كقولهم: فلانةٌ فتنَتْ فلانًا، وبمعنى: الآيةِ، كقولهِ ﷺ: "أقبَلَتِ الفِتَنُ كقِطَعِ اللَّيلِ المُظلِمِ"[4].

4) ﴿شَجَرَةٌ﴾: (شجر) أصلانِ مُتَداخِلانِ، يَقْرُبُ بَعْضُهُما مِن بَعضٍ، ولا يَخْلو مَعناهُما مِن تَداخُلِ الشَّيءِ بَعضِهِ في بَعضٍ، ومِن عُلوٍّ في شَيءٍ وارتفاعٍ[5]، والشَّجَرُ جمع الشَّجرة، وهو من النَّبات: ما له ساقٌ، يقال: شَجَرَةٌ وشَجَرٌ، نحو: ثَمَرَةٍ وثَمَرٍ، قال تعالى: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: 18]، وقال: ﴿لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الواقعة: 52]، ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾﴾ [الدخان: 43]، ووادٍ شَجيرٌ: كثيرُ الشَّجَرِ[6].

---

(1) الجوهري، الصحاح: (زقم).

(2) الراغب، المفردات: (نزل).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فتن).

(4) ابن المبرّد، الدر النقي في شرح ألفاظ الخرقي: 2/ 218، والحديث في ابن حنبل، مسند أحمد: مُسْنَدُ المَكِّيِّينَ، حَدِيثُ أَبِي مُوَيْهِبَةَ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ: 25/ 376، برقم: (15997).

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شجر).

(6) الراغب، المفردات، ص: 446.

5) ﴿أَصۡلٖ﴾: (أصل) ثَلاثَةُ أُصولٍ مُتَباعِدٍ بَعضُها مِن بَعضٍ، أحدُها: أساسُ الشَّيءِ، والثّاني: الحَيَّةُ، والثّالِثُ: ما كانَ مِنَ النَّهارِ بَعدَ العَشيِّ[1]، والأصل: امتدادٌ في العمق يقوم عليه الشَّيء، ويمتدُّ منه إلى الأعلى، كقاعدَتي الجبلِ والحائطِ لهما، وجذرِ الشَّجرة لها، وتلك الأصلة لها قائمة تقوم عليها، ﴿كَلِمَةٗ طَيِّبَةٖ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤﴾ [إبراهيم: 24]، ومن ذلك: أصْلُ كلِّ شيءٍ، أي: أسفلُهُ الَّذي يقوم عليه[2]، وقد ثَبت عَن العَرَبِ تَسْميَةُ النَّخْلِ شَجرًا، ومِنهُ حَديثُ الصَّحيحَيْنِ: "إنَّ مِن الشَّجر شَجَرَةً لا يَسقط ورَقُها، وإنَّها لمثلُ المُؤمن، أخبروني ما هيَ"، فَوَقع النّاس في أشجار البوادي، فَقالَ: "ألا وهي النَّخلَةُ"[3].

6) ﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾: (جحم) عُظْمُها بِهِ الحَرارَةُ وشِدَّتُها، فالجاحِمُ: المكانُ الشَّديدُ الحَرِّ[4]، والجحيمُ: اسْمٌ مِن أسماء النّارِ، وكلُّ نارٍ عَظيمَةٍ في مَهْواةٍ؛ فَهيَ جَحيمٌ، مِنهُ قولُهُ تَعالَى: ﴿قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ٩٧﴾ [الصافات: 97]، وهي النّارُ الشَّديدةُ التَّأجُّج، كَما أجَّجوا نارَ إبراهيمَ النَّبيِّ، عَلى نَبيِّنا وﷺ، فَهيَ تَجْحَمُ جُحومًا، أيْ: توقَّد توقُّدًا، وقالَ بَعْضُهُم: هوَ يَتجاحَمُ، أي: يتحرَّق حِرْصًا وبُخْلًا، وهوَ مِنَ الجحيم، وقَد تَكَرَّرَ ذِكْرُ الجَحيم في غَيْرِ مَوْضِعٍ في الحَديثِ، وهوَ اسْمٌ مِن أسماء جَهَنَّمَ، وأصلُهُ ما اشتَدَّ لَهَبُهُ مِنَ النّارِ، والجاحِمُ: المَكانُ الشَّديدُ الحَرِّ، وجحَم النّارَ: أوقَدها، وجَحُمَت نارُكم تَجْحُم جُحومًا: عَظُمت، وتأجَّجَتْ[5]، وليس في القرآن من التَّركيب إلّا (الجحيم)[6].

7) ﴿طَلۡعُهَا﴾: (طلع) أصلٌ واحِدٌ صَحيحٌ، يَدُلُّ عَلى ظُهورٍ وبُروزٍ، يُقالُ: طَلَعَتِ الشَّمْسُ طُلوعًا ومَطْلَعًا، والمَطْلِعُ: مَوضِعُ طُلوعِها[7]، والطَّلع: شَيءٌ يَخْرُجُ من النَّخْلِ كأنَّه نَعْلانِ مُطْبَقانِ، والحَمْلُ بينهما مَنْضودٌ، والطَّرَفُ مُحدَّدٌ، أو ما يَبْدو من ثَمَرَتِهِ في أوَّلِ ظُهورِها، وقِشْرُهُ يُسَمَّى: الكُفُرَّى، وما في داخِلِهِ: الإغْريضُ لبياضِهِ[8].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أصل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أصل).
(3) الزبيدي، تاج العروس: 1/ 104، والحديث في البخاري، صحيح البخاري، كِتَابُ العِلْمِ، بَابُ الحَيَاءِ فِي العِلْمِ: 1/ 38 برقم: (131).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جحم).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (جحم).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جحم).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طلع).
(8) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (طلع).

والطَّلْعُ يَطْلُعُ مِنَ النَّخْلَةِ، ثُمَّ يَصيرُ ثَمَرًا؛ إن كانَت أُنْثَى، وإنْ كانتِ النَّخلَةُ ذَكَرًا؛ لَمْ يَصِرْ ثَمَرًا، بَلْ يُؤْكَلُ طَريًّا، ويُتْرَكُ عَلَى النَّخْلَةِ أيّامًا مَعْلومَةً حَتَّى يَصيرَ فيهِ شَيْءٌ أبْيَضُ مِثْلُ الدَّقيقِ، ولَهُ رائِحَةٌ ذَكيَّةٌ، فَيُلْقَحُ بِهِ الأُنْثَى[1].

8) ﴿فَمَالِـُٔونَ﴾: (ملأ) يدُلُّ عَلى المُساواةِ والكَمالِ في الشَّيءِ، ومَلَأْتُ الشَّيءَ أمْلَؤُهُ مَلْئًا[2]، والمِلْءُ بالكسر: اسم ما يأخذهُ الإناءُ؛ إذا امْتَلأ...، ومُلِئَ الرَّجلُ، وأمْلأهُ اللّه، أي: أزْكَمَهُ، فهو مملوءٌ على غير قياسٍ يحمل على مليءٍ[3]، فقوله تعالى: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾، أي: مُعَبِّئون منها البطونَ، وكذا فمُفسِدون منها البطون.

9) ﴿لَشَوْبًا﴾: (شوب) أصْلٌ واحِدٌ، وهوَ الخَلْطُ، يقالُ: شُبْتُ الشَّيءَ أشوبُهُ شَوبًا[4]، فالشَّوبُ: الخَلطُ، قال اللّه تعالى: ﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾، وسُمّي العسلُ شَوْبًا إمّا لكونِهِ مزاجًا للأشربةِ، وإمّا لِما يختلطُ بهِ مِنَ الشَّمعِ، وقيل: ما عنده شَوْبٌ ولا روبٌ، أي: عسلٌ ولبنٌ[5].

10) ﴿حَمِيمٍ﴾: (حمم) فيهِ تَفاوُتٌ؛ لأنَّهُ مُتَشَعِّبُ الأبوابِ جِدًّا، فَأحَدُ أُصولِهِ اسودادٌ، والآخَرُ الحَرارَةُ، والثّالِثُ الدُّنوُّ والحُضورُ، والرّابِعُ جِنْسٌ مِنَ الصَّوْتِ، والخامِسُ: القَصْدُ[6]، حَمَمْتُ الماء، أي: سخَّنتُه أحُمُّ بالضَّمِّ في جميع ذلك، وحَمَّ الماءُ، أي: صار حارًّا، وأحمَّه أمرٌ، أي: أهمَّه، واليحموم أيضًا: الدُّخان[7]، فالحميمُ: الماءُ الشَّديد الحرارة، قال تعالى: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا﴾ [محمد: 15]، ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾، وقيل للماء الحارِّ في خروجه من منبعِهِ: حَمَّةٌ، وروي: العالم كالحمَّة يأتيها البعداءُ، ويزهدُ فيها القرباءُ، وسمّي العَرَق حميمًا على التَّشبيه[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يسألُ اللّهُ تعالى كلَّ مَن له عقلٌ يتدبَّر: أيُّهما خير: ذلك النَّعيم المقيم في جَنَّة الخُلد

(1) الفيومي، المصباح المنير: (طلع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملأ).
(3) الجوهري، الصحاح: (ملأ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شوب).
(5) الراغب، المفردات: (شوب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حمم).
(7) الجوهري، الصحاح: (حمم).
(8) الراغب، المفردات: (حمم).

مِن مآكل ومشارب، ممّا أُعِدَّ للمؤمنين من كرم الضّيافة وطيب المقام ومن صُحْبة صالح، أم معاناة العذابِ في سواء الجحيم، والأكل من شجرةِ الزَّقّوم، الَّتي جعلنا خبرَها في الدُّنيا امتحانًا للظّالمين، وجعلنا ثمرَها في الآخرة عقوبةً لهم، وما فيها من عذابٍ أليم، حيث تخرج في أصلِ الجحيم، ولها ثَمَرٌ يُشْبِهُ رُؤوسَ الشَّياطين قُبْحَ مَظهَرٍ ومرارةَ مَخبَر، فأهلُها يأكلونَ منها مجبَرين حتى تمتلِئَ بطونهم، ويُضاعفَ عليهم العذاب بالشُّرب مِنَ الماء المخلوطِ بالقيح والصَّديد، البالغ في الحرارةِ والغليان حدًّا لا يُطاق، وهم يدورون في العذابِ؛ إذ يتحوَّلون من سواءِ الجحيمِ إلى منازلِهم في النّار، ثم يعودون إليه مرَّةً ثانيةً، وثالثة، وهكذا إلى غير نهاية؟.

لا وجهَ للمُقارنة بين نعيم جَنَّة الجنان، وجحيم النّيران

وترشدُ الآياتُ إلى التَّهكُّم بعقول هؤلاء الذين يفضِّلون عملَ الدُّنيا على عمل الآخرة، وإلى إقامة الدَّليل على ضلال الإنسانِ بالغاية الَّتي يؤول إليها أمرُهُ، بتفضيلِه طريقَ أصحابِ الجحيم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصلِ جملة: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا﴾:

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ "استئنافٌ بعد تمام قِصَّة المؤمنِ ورِفاقه؛ قُصِدَ منه التَّنبيهُ إلى البَوْن بين حالِ المؤمن والكافر، جرى على عادة القرآنِ في تعقيب القَصصِ والأمثال بالتَّنبيه إلى مغازيها ومواعظها"[2].

من عادة القرآنِ تعقيبُ القَصصِ والأمثال بالتَّنبيه إلى مقاصدِها

غرضُ الاستفهامِ بـ(الهمزة) في الآية:

(الهمزة) في قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا﴾ استفهاميَّةٌ، مستعملةٌ في معنى التَّقرير، وذلك بوضع المخاطَبِ موضع المسؤولِ؛ ليجيبَ قاطعًا ومُقِرًّا بخيريَّة (ذلك)، أي: ما سبق ذِكرُهُ من

المؤمنُ اختارَ ما أدّى إلى رزق الجنَّة، والكافر اختار ما أدّى إلى شجرة الزَّقّوم

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة الصافات، ص: 143.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 121.

تفاصيل ﴿نِعۡمَةُ رَبِّي﴾ والتَّعلُّق بها، ومَقْتِ شجرة الزَّقّوم والحذر منها، و"تقرير قريش والكفار وتوقيفهم على شيئين أحدُهما فاسدٌ، وقد جيءَ به "توبيخًا للكافرين، وتوقيفًا على سوء اختيارهم"،[1] وإلى ذلك فـ "الاستفهام مكنيٌّ به عن التَّنبيه على فضل حالِ المؤمن وفوزه، وخَسار الكافر، وهو خطابٌ لكلِّ سامع"[2].

مرجعُ الإشارةِ في (ذلك)، ودلالته:

الشَّيءُ النَّفيس الشَّريف يُتخيَّل عاليًا، والعالي يلازمُهُ البُعد عن المكان المعتاد

الإشارةُ في قولهِ تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرُ نُّزُلًا﴾ راجعةٌ إلى قولهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤١﴾ [الصافات: 41]، والقصَّةُ بينهما ذُكِرَتْ بطريق الاستطرادِ، فالإشارةُ إلى الرِّزق المعلوم[3]، ولطيفةُ ذِكر تفاصيل الرِّزق المعلوم بالإشارةِ؛ من أجل استحضارها مشاهَدةً أمام النّواظرِ متمايزة جليَّة، في أيسر لفظٍ وأسرعِهِ؛ انتقالًا إلى ذِكر المعادِل المَقيت ليتجلّى بَوْن ما بينهما.

وآثرَ النَّظمُ الكريم إشارةَ البعيدِ في قوله تعالى ﴿أَذَٰلِكَ﴾؛ ليكشفَ عن عُلوِّ رُتبتها وسموِّ منزلتها في الواقع، وفي نفوسِ الموفَّقين إليها بإيمانِهم، ويَلفت إلى أنَّها غايةٌ لهم جليلةٌ، وأنَّ ظَفَرَهم بها هو ﴿ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

دلالةُ التَّعبيرِ بالتَّفضيلِ في الآية:

التَّوفيقُ إلى الإيمان، والظَّفر بالجنانِ غايةٌ عليا ونعمة مِنَ الله تعالى جليلةٌ

مقصودُ المفاضَلَةِ بأفعل التَّفضيلِ ﴿خَيۡرُ﴾ بين أمرين: أحدُهما لا خيرَ فيه ألبتَّة، والثاني: إظهارُ ما بينهما من شسوع، والتَّهكُّم بِمَن يختار معدوم الخيريَّة، فأين شجرةُ الزَّقّوم ونُزُلُها من (ذلك) النَّعيم المقيم؟ فأفعل التَّفضيل ﴿خَيۡرُ﴾ في قوله: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرُ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ "واردٌ على سبيل التَّهكُّم والاستهزاء بهم"[4]، وإنَّما

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 106.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 121.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 92.
(4) حقي، روح البيان: 7/ 464.

"جاء بلفظة التَّفضيل بين شيئين لا اشتراك بينهما مِن حيثُ كان الكلامُ تقريرًا"[1]؛ وذلك الأسلوبُ يُستعمل لِتنبيهِ الغافل إلى وجوب الاستمساكِ بخيار واحد منهما؛ لِخُلوِّ الخيار الآخر مِن النَّفع بالمرَّة، بل وتمحُّضه للضُّرِّ والشَّرِّ، ومثالُه قولُ الوالد لولده: أنَجاحُك وتفوُّقك وفرْحةُ أهلك بك خيرٌ أم رسوبك وتخلُّفك عن زملائك وحزن أهلك؟ فالخيارُ الأوَّلُ هو الخيارُ قطعًا، والخيار الثاني هو البغيضُ الذي لا خيرَ فيه ألبتَّة.

سرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بـ ﴿نُزُلًا﴾:

لأهلِ الجنَّة نُزُلٌ حقيقةً، ولأهل النّار نُزُلٌ تهكُّمًا

آثرَ النَّظمُ الكريمُ مفردةَ ﴿نُزُلًا﴾ في قوله: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا﴾ دون (سَكَنًا)؛ لِما تَفْضُل به الأولى الآخرة؛ إذ السَّكَنُ لا يفيدُ أكثرَ مِن كونِهِ محلَّ السُّكْنى والإقامة، أمّا ﴿نُّزُلًا﴾؛ فتزيدُ على ذلك كرم الضّيافةِ الَّذي يُكرم، ويُحتفَى به؛ لذلك اصطفاها الذِّكرُ الحكيم على (السَّكن) لمقام التَّكريم حقيقةً وتهكُّمًا، حقيقة مثل قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ﴾ [آل عمران: 198]، وتهكُّمًا مثل قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلًا ١٠٢﴾ [الكهف: 102].

معنى ﴿أَمۡ﴾ ودلالتها:

مِن أساليب القرآنِ عَقْدُ معادلةٍ بين طرفَي الخيرِ والشَّرِّ تهكُّمًا

﴿أَمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ "حرفُ عطفٍ"[2] ومُعادَلَة، فهو يوازنُ بين طرفين في الخيريَّة: أحدهما: الإشارةُ ﴿أَذَٰلِكَ﴾، ومرجعها ﴿نِعۡمَةُ رَبِّي﴾ بتَفاصيلها - كما سبق - والثاني: ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾، "ومعلوم أنَّه لا نسبة لأحدهما إلى الآخر في الخيريَّة، إلّا أنَّه جاء هذا الكلامُ إمّا على سبيل السُّخريةِ بهم، أو لأجلِ أنَّ المؤمنين لمّا اختاروا ما أوصلَهم إلى الرِّزق الكريم، والكافرين اختاروا ما أوصلَهم إلى العذابِ الأليم، فقيل لهم ذلك؛

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 475.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 276.

توبيخًا لهم على سوءِ اختيارِهم"[1]، وأين الثُّريّا مِنَ الثَّرى؟ كما يقول ابن عاشور[2].

فجاء "التَّفاضلُ بينَ النُّزُلَين للتَّوبيخ والتَّهكُّم، وهو أسلوبٌ كثيرُ الورود في القرآنِ، والحملُ على المشاركةِ جائزٌ"[3]، و"معنى معادِل الاستفهام إمّا أنْ يُقدَّرَ: أم منزل شجرة الزَّقّوم؟ على حدِّ قوله تعالى: ﴿أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ٧٣﴾ [مريم: 73]، فقد ذَكَر مكانين، وإمّا أنْ يُقدَّر: أمْ نُزُلُ شجرة الزَّقّوم، وعلى هذا الوجه الثّاني تكون المعادلةُ مشاكَلةً تَهكُّمًا؛ لأنَّ طعام شجرةِ الزَّقّوم لا يَحقُّ له أن يُسمَّى نُزُلًا"[4].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿شَجَرَةُ﴾:

ذِكـرُ البُشرى قبلَ الحَسرةِ أكثرُ إيلامًا

إذا أُطلِقَ اسمُ ﴿شَجَرَةُ﴾؛ استبشرَتِ النُّفوس، وذهب الخيال إلى أجواء الظِّلال، والغناء بالثِّمار، والجمال، فإذا أُضيفت إلى ﴿ٱلزَّقُّومِ﴾؛ حصلتِ المفاجأةُ الأليمةُ، وعادتِ البُشرى حسرةً، واستحالَت أجواءُ الخير كآبةً، وهذا من شأنِهِ غرسُ الكراهةِ لتلك الشَّجرة المفجعةِ، وألزمَتِ المسؤولَ بقولِهِ تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ الإقرارَ بأنَّ ﴿أَذَٰلِكَ﴾ خيرٌ يا ربّي.

معنى (ال) في ﴿ٱلزَّقُّومِ﴾، ودلالة الإضافة:

شجرة الزَّقّوم يقتاتُها أهلُ النّار، وهي مُرَّةُ الثَّمرِ، خشِنةُ اللَّمس، مُنتِنة الرّيحِ

(ال) في ﴿ٱلزَّقُّومِ﴾ عَهْدِيَّةٌ؛ إذ "ذُكِرَتْ هنا ذِكْرَ ما هو معهودٌ مِن قَبْلُ؛ لِوُرودها مُعَرَّفةً بالإضافة، ولِوُقوعها في مقام التَّفاوُت بين حالَي خيرٍ وشرٍّ"[5]، فـ (ال) في ﴿ٱلزَّقُّومِ﴾ تأخذ بالأذهان نحوَ ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ المعهودة لديها، الغالبة عليها تلك الصِّفات الكريهة

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 336.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 121.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 92.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 122.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 122.

المُخيفة، و"ظاهرُ لفظِ القرآنِ يدلُّ على أنَّها شجرةٌ كريهةُ الطَّعْمِ، مُنْتِنة الرّائحةِ، شديدةُ الخُشونةِ"(1)، والإضافةُ في ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ "كأنَّها مشتقَّةٌ مِن الزُّقمة - بضم الزّاء وسكون القاف - وهو اسم الطّاعون، وقال ابنُ دريد: لم يكن الزَّقّوم اشتقاقًا من التَّزقُّم، وهو الإفراطُ في الأكلِ حتّى يكرهَهُ، وهو يريدُ الرَّدَّ على مَن قال: إنَّها مشتقَّة من التَّزقُّم، وهو البَلْعُ على جهد لكراهة الشَّيء"(2).

علَّةُ فصل جملة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً﴾:

شجرةُ الزَّقّوم عـذابٌ يلائم الظّالمين

فُصِلَتْ جملة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ عن جملة: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾؛ لِما بينهما مِن كمال الانقطاعِ، فالأولى منهما إنشائيَّةٌ، تخاطب العقلاءَ خطابًا ظاهرُه الاستفهامُ، وباطنُهُ التَّقريرُ بخيريَّة أحدِ المُعادلَيْنِ ونفيها عن الآخرِ، والجملة الثانيةُ خبريَّةٌ، تتضمَّن بيانَ مُهمَّة المعادِل منزوعَ الخيرِ ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾؛ لذلك فُصِلَ بينهما.

غرضُ التَّوكيدِ في جملة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً﴾:

قد يُؤكَّدُ الكلامُ لخطورةِ مضمونِهِ بغضِّ النَّظرِ عن وجود منكِر

أُكِّدَ الخبرُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لانتزاع إنكارِ المنكرين، أمثال القرين الكافرِ السّابقِ ذِكرُهُ في قول المؤمن في الجنَّة: ﴿إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ [الصافات: 51 - 52]، فالخبرُ هنا إنكاريٌّ بهذا الاعتبار، وباعتبار آخرَ هو خبر يُنَزِّل عُصاة المسلمين مَنْزلةَ المنكرين لِمضمونِه، فيؤكَّد لهم، وباعتبار ثالث هو خبرٌ خطيرٌ مرعبٌ، ومثله لا يُساق ساذَجًا غُفْلًا مِنَ التَّوكيد، وإنَّما يُلفَتُ إلى خطرِه بالتَّوكيد، ولا يُساق هكذا غُفْلًا، وقد قالوا في دواعي التَّوكيد: "وقد يَكونُ التَّأكيدُ مِنْ جِهَةِ أنَّ القَضيَّةَ في نَفْسِها مِمّا يُهتَمُّ بِهِ، وإن لَمْ يَكُن هُناكَ مُنْكِرٌ"(3).

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 336.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 123.
(3) ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري: 1/ 74.

الغرضُ مِن التَّقديمِ في: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا﴾:

جَـعْـلُ الـلـهِ العظيمِ (شجرة الـزقـوم) فتنةً للظّالمين دليل شناعةِ ظُلمهم

التَّعبيرُ بضميرِ العظمةِ في ﴿إِنَّا﴾، ثمَّ تكرارُهُ فاعلًا في ﴿جَعَلْنَٰهَا﴾ ممّا يُضفي على فتنةِ ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ خطورةً، ويبثُّ في النُّفوس الشّاردة مِن جلال اللّهِ تعالى ما يكفُّهم عن الضَّلال، ويأخذ بأيديهم إلى طريق الإيمانِ لو كانوا يعقلون.

فإسنادُ الجعلِ الصَّريح إلى ضميرِ العظمةِ يَحمل مزيدَ تهديدٍ، ويقرِّر أنَّه جعلَ صاحبَ الجبروتِ العظيم ﷻ النّاطق به ضمير العظمة: (نا) في جملة ﴿جَعَلْنَٰهَا﴾، ممّا شأنُهُ جعْلُ المنكرين يَرْعَوون، ويتملَّكهم الفزعُ مِنَ العقوبةِ بـ ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجعلِ ماضيًا:

كلُّ شيءٍ حصل إنَّـمـا هـو بـإذنِ الـلـه تـعـالى وجَـعْـلِـهِ، وما لم يأذنْ بهِ مِن شيءٍ لا يكون

سرُّ التَّعبيرِ بالجعل دون غيرِهِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ الإشارةُ إلى أنَّ كلَّ شيءٍ في ملكوتِهِ تعالى، وكلَّ عملٍ يُعمَل في كونِهِ ﷻ إنَّما هو بإذنِ اللّهِ تعالى وتوفيقِهِ وجَعْلِهِ، وأنَّه تعالى ما لم يأذَنْ بشيءٍ مِن ذلك وغيره لا يكون، وفي صوغِ فعلِ الجَعْلِ ماضيًا في جملةِ: ﴿جَعَلْنَٰهَا﴾ إيحاءٌ بأنَّه قد تحقَّق، وتمَّ، وأنَّ ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ تنتظرُ أصحابَها في جهنَّم منذ زمانٍ يعلم اللّه تعالى امتدادَهُ في الماضي البَعيد، كما قال ﷺ: "أوقِدَ عَلى النّارِ ألفَ سَنَةٍ حَتّى احمَرَّت، ثُمَّ أوقِدَ عَلَيها ألفَ سَنَةٍ حَتَّى ابيَضَّت، ثُمَّ أوقِدَ عَلَيها ألفَ سَنَةٍ حَتَّى اسوَدَّت، فَهيَ سَوداءُ مُظلِمَةٌ"[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿فِتْنَةً﴾، ولطيفة تنكيرها:

الفتنةُ تمحيصٌ في الدُّنيا، عذابٌ فـي الآخـرة، وقـدرةُ الـلـه تعالى مطْلقةٌ

وجهُ الفتنةِ بـ ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ أنَّ كفّار قريش "قالوا: يخبركم محمَّدٌ أنَّ في النّار شجرةً، والنّار تحرق الشَّجرَ، و﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً﴾ هو قولُ أبي جهل: إنَّما الزَّقّوم التَّمر والزُّبْدُ، فقال لجاريته: زقِّمينا،

(1) الترمذي، سنن الترمذي، أبواب صفة جهنم، بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ نَارَكُم هَذِهِ جُزْءٌ مِن سَبعِينَ جُزءًا مِن نَارِ جَهَنَّمَ، باب منه: 25/ 91.

فزقَّمته"[1]، فـ "هذا شيءٌ بعيدٌ عن العرفِ والعادةِ مخالفٌ للمألوف والمعروف، فإذا وردَ على سمعِ المؤمنِ؛ فوَّضَ عِلْمَهُ إلى اللّٰه تعالى، وإذا وردَ على الزَّنديق؛ توسَّلَ بهِ إلى الطَّعنِ في القرآنِ والنُّبوَّة"[2]، "ولم يعلموا أنَّ مَن قَدَر على خلقِ حيوانٍ يعيش في النّار، ويتلذَّذ بها، أقدرُ على خلقِ الشَّجر في النّار، وحفظه مِنَ الإحراق، فالنّار لا تحرقُ إلّا بإذنِه، أو أنَّ الإحراقَ عندها لا بها"[3]، وأنَّ ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ "لمّا كانَ أصلُ عنصرِها النّارَ؛ لم تُحرَق بها كسائر الأشجار، ألا ترى أنَّ السَّمكَ لمّا تَوَلَّد في الماءِ؛ لم يَغرقْ، بخلاف ما لم يتولَّد فيه"[4].

معنى (اللام) و(ال) في القيد ﴿لِّلظَّٰلِمِينَ﴾:

الظُّلمُ داعيةُ الفتنةِ في الدُّنيا، وسببُ العقوبة في الآخرةِ

(لام) الجرِّ في الظّالمين تفيد التَّخصيص؛ إذ إنَّ (الظالمين) هم مَن يُعاقَبون بـ ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ في الآخرةِ، فهي ﴿فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ﴾، وهم ﴿فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾، وكذلك في الدُّنيا هم مَن يُهدَّدون بها؛ ولذلك يمكن تسميتُها لامَ الوعيد والعقوبة، أمّا المؤمنونَ؛ فمعصومونَ، موَفَّقون بتوفيق اللّٰه تعالى؛ لذلك فهُم يُبَشَّرون بالرِّضوان والجنان، ولا يُتَهَدَّدون، ويُتوَعَّدون بِظُلمٍ فعلوه.

(ال) في (الظالمين) للاستغراقِ المحيط بكلِّ صنوفِهم، سواءٌ مَنْ كان ظالمًا لنفسِه بالكفر والمعاصي، أو ظالمًا لعبادِ اللّٰه تعالى بالاعتداء على حقوقِهم، أو ظالمًا للدّين بمحاربتِه، فكلُّهم ظالمٌ وإن كان أبشعُهم الكفّارَ والمشركين، إلا أنَّهم كلَّهم مهدَّدون في الدُّنيا؛ حتى يتوبوا، وكلُّهم معذَّبون بـ ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ في الآخرة؛ إن لم يتوبوا؛ وذلك أنَّهم قالوا: كيف تكونُ في النّار شجرةٌ، وهي تُحرِقُ الشَّجرَ؟"[5].

(1) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 142.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 337.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 92.
(4) حقي، روح البيان: 7/ 465.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 86.

نكتةُ التَّعبيرِ بالظُّلم باسم الفاعل:

الكفرُ والشِّركُ أبشعُ الظُّلمِ

لتنوُّع صنوفِ الظُّلم آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ به هنا دون التَّعبيرِ بالكفرِ، وإلى ذلك ففي التَّعبيرِ بالظُّلم هنا تنبيهٌ إلى سببِ التَّهديدِ والوعيدِ في الدُّنيا، وسببُ التَّعذيبِ بـ ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ في الآخرة، إلى ما في الظُّلم مِن بشاعةٍ في النُّفوس كلِّها.

وفي صوغ (الظالمين) اسمَ فاعلٍ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ دلالةٌ على ترسُّخ الظُّلم في نفوسِهم، ودوامِهم عليه، وتطامنِهم إليه حتّى استمرؤوه، وما عادوا يستقبحونه، ولا يحاولون التَّخلُّص منه، وفي جَمْع (الظالمين) لَفْتٌ إلى كثرتهم، واتِّساقٌ مع نصوص الشَّرع الحنيفِ القاطعة بأنَّ ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: 243]، و﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: 103].

علَّةُ فصلِ جملة ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ﴾:

في استئنافاتِ القرآنِ وفاءٌ بمتطلَّبات ذهنِ المخاطَبِ وإن لم يسأل

فُصِلَت جملةُ: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ عن جملة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لأنَّها وصف ﴿شَجَرَةٌ﴾ للاستئناف البيانيِّ، حيث يثيرُ الكلامُ السّابق سؤالًا عن تلك الشَّجرة الَّتي جعلها الله تعالى فتنةً للظّالمين ما هي؟ وأين منبتُها؟ فتأتي جملة: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ إلى آخرِه جوابًا عن هذا السُّؤال، وفي ذلك الجواب توجيهٌ ضمنيٌّ إلى ضرورة الوفاء بمتطلَّبات ذهن المخاطَب وإن لم يسألْهُ.

غرضُ التَّوكيدِ في جملة: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ﴾:

الغرابةُ تقتضي التَّأكيد

أُكِّدَ الخبرُ في جملة: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ لغرابتِه؛ إذ لم تُعهَد شجرةٌ تنبُت في قاع النّار ووسطها، فإن كان المخاطَبُ مؤمنًا؛ حسُنَ توكيدُ الخبرِ له، وإن لم يكن مؤمنًا؛ وجب التَّوكيدُ.

سرُّ وضعِ المظهرِ موضعَ المضمر في الآية:

أظهَر النَّظمُ الكريم اسمَ ﴿شَجَرَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ

غـرابـةُ الـشَّيءِ تقتضي الإلحاحَ على تَكرارِ ذِكرِهِ

﴿تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ﴾، والقاعدةُ على إضمارِها بعد تقدُّم ذكرها صريحةٌ في قولِه تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرُ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾؟ وبعد تقدُّم ضميرِها في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ﴾، فأعاد النَّظمُ الكريم ذِكرها صريحةً دون ضميرِها لتجديدِ ذِكرها؛ فلا يبعُد العهدُ بها من جهةٍ، وللتَّنويه بغرابةِ مَخرَجِها من جهة أخرى، وغرابةُ الشَّيء تقتضي الإلحاحَ على تَكرار ذكرِهِ، كما تقرَّر أنَّ بُعدَ العهدِ عن ذكرِ الشَّيء يقتضي إعادةَ ذكرِهِ.

سرُّ التعبيرِ بالخروج مضارعًا:

وسائلُ تعذيبِ الـظّـالـمـين فـي الآخـرةِ تَحنق عليهم وتُبغضهم

في إيثار التَّعبيرِ بالخروج دونَ الإنباتِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ لشجرةِ الزَّقّوم إرادةً في الخروج للانتقام منهم، وأنَّها حانقةٌ على هؤلاءِ الظّالمين، وإن كان من معنى الخروج الإنباتُ، "كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ [الأعراف: 58]"[1]، فمِن معاني الخروج في الذِّكر الحكيم أيضًا البروزُ والظُّهورُ، كقولِه تعالى: ﴿يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [البقرة: 61]، فليسَ المنظورُ عندَهم الإنباتَ، بل الإظهار السَّريع والعطاء المباشر، وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُ﴾ [البقرة: 74]، وقوله: ﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا﴾ [النساء: 100] وقوله: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ [الأنعام: 95]، وقوله: ﴿تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ﴾ [طه: 22]، كذا من معانيهِ التَّحويل مثل قولِه تعالى: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: 1]، وصيغةُ المضارعة في الفعل ﴿تَخۡرُجُ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ تَلفت إلى تَجدُّد حَنَقِ شجرة الزَّقّوم، وأنَّها تُجدِّدُ طَلْعَها كريهَ المظهر والمخبر والشَّكلِ والطَّعم، وأنَّها لا تَبْلَى، ولا تتوقَّف عن الخروج، بل تتجدَّد، ويتجدَّد قُبحها، ويتفاقم على أهل الكفر ضرُّها.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 123.

معنى ﴿فِيٓ﴾ ودلالتها في ﴿فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ﴾:

الجحيمُ يُحيطُ بالكفّار إحاطةَ الظَّرفِ بمظروفِهِ

﴿فِيٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ حرف للظَّرفيَّة، يُقرِّر أنَّ مبدأ شجرةِ الزَّقّوم من داخل الجحيم، وأنَّها منبثقةٌ من أصلِ جهنَّم، وأنَّ الجحيم يُحيط بها إحاطة الظَّرف بمظروفِهِ، وأنَّ العذابَ يشتمل على الكافرِ اشتمالَهُ على ذلك القرين الكائنِ في ﴿سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾، وأكلُهُ من تلكَ الشَّجرةِ الَّتي منبتُها ﴿فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ﴾، وليس ذلك إلّا معاناةً، ولا منه مهربٌ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿أَصۡلِ﴾، ونكتة إضافته:

المؤمنُ يفوِّض عِلْمَ ما لا يفهمُهُ مِنَ الدّين إلى اللهِ تعالى

يدلُّ التَّعبيرُ هنا بـ﴿أَصۡلِ﴾ على رُسوخِ تلك الشَّجرةِ، وتلك الأصلةُ لها قائمةٌ تقوم عليها[1]، فـ"منبتُها في قعرِ النار، وأغصانُها ترتفع إلى دركاتها"[2]، والمقصودُ بذكرِ أصلِها "وصفُها لهم؛ لاختلافهم فيها، وليُعلمَهم جوازَ بقائِها في النّار؛ لأنَّها تنبت من النّار"[3]، و"تَحْيا بلَهَبِ النّار، كما تحيا الشَّجرة ببَرْدِ الماءِ، فلا بُدَّ لأهلِ النّارِ من أنْ ينحدرَ إليها منهم مَن كانَ فوقَها، فيأكلونَ منها، وكذلك يَصعد إليها مَن كان أسفل"[4]، "ومِن عجيبِ قدرةِ اللّهِ تعالى أنْ جعلَ مِنَ النّار شجرةً، وهي ناريَّةٌ لا محالةَ... وتقريبُ ذلكَ ما يُصَوَّرُ في الشَّماريخ الناريَّة مِن صوَرٍ ذات ألوانٍ كالنَّخيلِ ونحوه، وجعل لها طلعًا، أي: ثمرًا"[5]، و"لا حرج على قدرةِ اللّهِ تعالى أن ينبتَ هذا النَّوع من الشَّجر في أصلِ الجَحيم، بأن يجعلَ في تركيبِهِ كيمياء خاصَّة تمنع احتراقَهُ بالنّار، وتجعل النّارَ غذاءً لَهُ، وكم للّه مِن عجائبَ، منها: أنَّ اللّه تعالى جعلَ النّار على إبراهيمَ بردًا وسلامًا"[6].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أصل).
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 92.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 51.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 85.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 123.
(6) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 422.

سِرُّ إيثارِ ﴿ٱلْجَحِيمِ﴾ هنا:

(الجحيم) هو المناسبُ لـ (أصل) الَّذي تخرجُ منه (شجرة الزقّوم)

وردَ في القرآنِ الكريمِ مِن أسماء النّار: جَهَنَّم، الجحيم، لَظَى، السَّعير، الحُطَمة، الهاوية، سقر[1]، والَّذي يلائم الـ ﴿أَصْلِ﴾ منها هو ﴿ٱلْجَحِيمِ﴾؛ لأنَّ الجحيمَ نارٌ على نارٍ، وجمرٌ على جمرٍ[2]، وكلُّ نارٍ عَظيمَةٍ في مَهْواةٍ؛ فهي جَحيمٌ، والنّارُ الشَّديدة التَّأجُّج وما اشتَدَّ لَهَبُه مِنَ النّارِ جحيمٌ، وما عَظُمَ، وتأجَّجَ جحيمٌ[3]؛ فلذلك كان المناسب لـ ﴿أَصْلِ﴾ الذي تخرجُ منهُ ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾.

موقعُ جملةِ ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ﴾ ودلالتُه:

جملة: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ صفةٌ لشجرة في قوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾، وفي الصِّفة جملةٌ تشنيعٍ وتبشيعٍ لهذه الشَّجرةِ.

علَّةُ التَّعبيرِ بـ(طلع):

في تَسْميةِ ثَمَرِ (شجرة الزقوم) طَلْعًا تهكُّمٌ بالكفار

حين يُطلَقُ اسمُ (الطَّلْعِ) يَنْبعثُ على البُشرى في النَّفس؛ لأنَّه نَورُ النَّخلة الَّذي يصير تمرًا ورطبًا بعد ذلك؛ فإذا أُضيف إلى ضمير شجرةِ الزَّقّوم في ﴿طَلْعُهَا﴾؛ كان وقْعُ المفارقةِ فاجعًا، وصارت الدَّلالةُ إلى التَّهكُّم بالكفّار؛ إذ إنَّه طعامُهم في سواء الجحيم، وأصلُهُ: طلعُ النَّخل، وهو أوَّل ما يبدو، وقبل أن تَخرج شماريخُهُ، أبيضُ غضٌّ، مستطيلٌ كاللَّوز، سُمّي به حَمل هذه الشَّجرةِ؛ لأنَّه يشابهه في الشَّكل أو الطُّلوع، ولعلَّه الأولى لِمكان التَّشبيه بعدُ، فيكون استعارةً تصريحيَّةً، أو لاستعمالهِ بمعنى ما يطلع مطلقًا، فيكون مجازًا مرسلًا[4].

(1) اللَّبَابِيدي، معجم أسماء الأشياء، ص: 63.
(2) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 278.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (جحم).
(4) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 92.

براعةُ التَّعبيرِ بـ ﴿طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ﴾:

بـنـاءُ التَّشبيهِ المعقودِ بـ (كأنَّ) على صريح اسم المشبَّهِ يُكثِّف لطائفَهُ

آثرَ النَّظمُ الكريم بناءَ جملةِ: ﴿طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ على تقديم الاسمِ الظّاهر (طلع) مضافًا إلى ضميرِ: ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ دونَ تصديرِ أداة التَّشبيهِ، فيقال: (كأنَّ طلعها...)؛ وذلك لِما يحقِّقه التَّركيبُ القرآنيُّ مِن جملة دلالاتٍ بارعةٍ هي مِن آيات إعجازِه، منها: تصديرُ وصْفِ التَّهكُّم (طلع)، ومنها: إعادة ذِكر (الطَّلع) مرَّتين: مرَّةً بالإظهارِ في ﴿طَلۡعُهَا﴾، ومرَّةً بالإضمار بعد (كأن)، فيتحقَّق للتَّشبيه بـ (كأنّ) شرطُهُ مِن دخولِها على المشبَّهِ به، ومنها: التَّنبيهُ إلى خطورةِ ﴿طَلۡعُهَا﴾ بتكرارِه، ومنها: تقريبُ الشَّبه بالرَّبْطِ بين المشبَّهِ ضميرِ الطَّلع المتَّصل بـ (كأنّ)، والمشبه به: ﴿رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ دون إبطاءٍ بإدخالِ (كأنّ) على ضميرِ (طَلْع).

نكتةُ إضافةِ (طلع) إلى الضَّمير:

الإضافةُ تضفي مـن صـفـات المضافِ إليه على المضافِ

في إضافةِ (طلع) إلى ضمير شجرةِ الزَّقّوم في قوله: ﴿طَلۡعُهَا﴾ إيحاءٌ بأنَّه (طلع) من نَوْعٍ كريهٍ، يختصُّ بتلك الشَّجرة البغيضة، فلا يمكن تصوُّرُ قبحِهِ ولا شدَّة ضررِه، ممّا يغرس له في النُّفوس حَذَرًا ورعبًا، ويُسهم في استبشاع النفوس إياه، وتلافي اقتراف أسباب العقوبة به.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿رُءُوسُ﴾:

الـرَّأسُ مَجْمَعُ الـحـواسِّ وموضِعُ الأفكار ومـنـه يـبـتـدر الخيرُ والشَّرُّ

لَمّا كان الرَّأس مَجْمَعَ الحواسِّ، وفي ظاهرِهِ تجتمعُ الأعضاء البادي عليها أماراتُ الحُسن أو القُبح، وفيه يستقرُّ الذِّهن، الذي يبدع الخيرَ والشَّرَّ، والذي هو موضعُ الفِكر؛ كان الرَّأس مِن الشَّيطان أخبثَهُ، وكان منه أخطرَهُ، فناسب في مقامِ التَّرهيب والتَّحذير مِن خطورةِ ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ إلحاقُها برُؤوسِ الشَّياطين؛ تنبيهًا إلى تكاثُفِ الشَّرِّ فيه حسًّا وعقلًا، وذلك يعكس مُفاقَمَةَ العقوبةِ على الكافرين المنكرين للبعثِ والحسابِ بإطعامِهم ثَمَرًا يشبهُهُ.

و"فيه إشارةٌ إلى أنَّ مَن كان هاهنا معلوماتُه في قُبْحِ صفاتِ الشَّياطين تكونُ هناك مكافأتُه في قُبح صورة الشَّياطين... وفيه إشارةٌ إلى أنَّهم كانوا لها في مزرعةِ الدُّنيا زارعين، فما حصدوا إلّا ما زرعوا"[1].

وفي جمع ﴿رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ في المشبَّه بهِ مِنَ التَّشبيه ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ تكثيفٌ لظلال الصّورةِ المستبشَعَةِ، وتكثيرٌ للشَّرِّ في ثمار شجرةِ الزَّقّوم الخارجةِ مِن ﴿أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾؛ لذا آثرَ النَّظمُ الكريم جمع ﴿رُءُوسُ﴾، و﴿ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ دون الإفرادِ، ولو قال: طلعها كأنَّهُ رأسُ الشَّيطان؛ لَما كان للصّورة مِنَ الرهبةِ والحَذَرِ ما لِقولِهِ: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾.

معنى (ال) في ﴿ٱلشَّيَٰطِينِ﴾، ونكتة الإضافة:

في ثَمَرِ شجرةِ الزَّقّوم الشَّرُّ والضُّرُّ ما في رأس الجنس الأخطر من الشَّياطين

(ال) في ﴿ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ عهديَّةٌ، على أنَّ الشجرة المذكورة في الآية السابقة من شجر يقال له الصَّوْمُ، فعلى هذا قد خوطب العربُ بما تعرفه، وهذه الشجرةُ موجودة، فالكلام حقيقي[2]، أو هي لتعريف ماهية الجنس[3]، فتأخذُ بالأذهانِ نحو الأخطرِ من ﴿ٱلشَّيَٰطِينِ﴾، الذين حذَّرَتْ منهم نصوصُ الدّين الحنيف، وأبانتْ عن شدَّة عداوتِهم للإنسانِ، وخُبْثِ محاولاتِهم الإيقاع به، ومنعه مِن الإيمانِ باللهِ تعالى واليوم الآخرِ، وذلك في المشبَّه بهِ ممّا يكشف في المشبَّه مزيدًا من التَّرهيب والتَّهديد.

بلاغةُ التَّشبيهِ في جملة: ﴿كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾:

التَّمثيلُ بما يُسْتَقْبَحُ أبلغُ في باب المذكَّرِ يُمَثَّلُ بالشَّيطان

شَبَّه البيانُ القرآنيُّ الكريم ثمرَ شجرةِ الزَّقّوم برؤوس الشَّياطين، وفي ذلك "دلالةٌ على تَناهيه في الكراهةِ وقبحِ المنظرِ؛ لأنَّ الشيطانَ مكروهٌ مستقبَحٌ في طباعِ النّاس؛ لاعتقادِهم أنَّه شرٌّ

(1) حقي، روح البيان: 7/ 465.
(2) السمين، الدر المصون: 9/ 315، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 282.
(3) قباوة، المفصل، ص: 1600.

مَحْضٌ لا يخلطُهُ خيرٌ، فيقولون في القبيحِ الصّورة: كأنَّه وجهُ شيطانٍ، كأنَّه رأسُ شيطانٍ، وإذا صوَّرهُ المصوِّرون؛ جاؤوا بصورتِهِ على أقبحِ ما يُقْدَرُ وأهوَلِهِ"[1].

و"التَّمثيلُ بما يُسْتَقْبَحُ أبلغُ في باب المذكَّرِ يُمَثَّلُ بالشَّيطان، وفي باب ما يُسْتَقْبَحُ في المؤنَّث يشبه بالغولِ"[2]، فـ "شُبِّهَ طَلْعُ تلك الشَّجرة بِرُؤوسِ الشَّياطين لِفضل إنكارهِم وبغضِهم إيّاها حقيقةً، وفي ذلك آيةٌ عظيمةٌ لرسالتِهِ ﷺ؛ لأنَّهم لم يرَوا الشَّياطين بِبَصرِهِم، ولا عرفوهم معاينةً، وإنَّما عرفوهم بأخبارِ الرُّسل عليهم الصَّلاة والسَّلام، وبها استنكروها، واستقبحوها، وهم قومٌ لا يؤمنون بالرُّسل عليهم السلام، فإذا قبلوا أخبار رُسُل الله تعالى فيهم؛ لزمهم أن يقبلوا قولَهم في الرِّسالة، وفي جميع ما أخبروا، واللَّه أعلم"[3].

ولأنَّ "هذه الصِّفات التي وُصِفَتْ بها ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ بالغةٌ حدًّا عظيمًا من الذَّمِّ... عُبِّر عنه بالملعونةِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء: 60]، وكذلك في آية ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٦﴾ [الدخان: 43 - 46]"[4].

معنى (الفاء) في جملة ﴿فَإِنَّهُمْ﴾:

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا﴾ تفريعيَّةٌ؛ إذ تُفَرِّع أكلَهم من شجرةِ الزَّقّوم "على جعلها فتنةً، أي: مِحنةً وعذابًا للظّالمين"[5]، وتُقرِّر توفُّرَ أسبابِ النَّهَم عند هؤلاءِ بفعل الألم والحرِّ الشَّديد، فلا تَكفُّهم مرارةُ شجرةِ الزَّقّوم ولا معاناة تجرُّعها؛ حتى يملؤوا منها بطونَهم، كمَن يستغيثُ مِنَ الرَّمضاء بالنّار.

تصويرُ النَّهَمِ وشراهة الأكل بفعل الألم والحرِّ الشَّديد

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 46.
(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 306.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 567.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 124.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 93.

غرضُ التَّوكيدِ في جملة: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ﴾:

في تأكيداتِ الأخبارِ القرآنيَّةِ مِن الإنذار لمن يعقلُ ما يكفي للفرار إلى الإيمانِ

توكيدُ أكلِ الكفّار في الجحيم مِن طَلْعِ شجرةِ الزَّقّوم في جملة: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا﴾ مِن مقتضيات الخبرِ؛ إذ يُستبعَدُ في الطَّبع السَّليم الأكلُ مِن ثمرةِ تلك الشَّجرةِ الملعونة الخبيثة، فأكَّدت (إنَّ) أكْلَهم منها إلى درجة مِلْءِ البطون، وذلك التَّأكيد من باب الإنذارِ الكافي لمن لديه قدْرٌ مِن عَقْلٍ لِأنْ يَفِرَّ مِنَ الكفرِ إلى الإيمانِ، ولكن سبحان مَن له في خَلقِهِ شؤونٌ!

مرجعُ الضَّميرِ في ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ ودلالته:

في طيِّ ذِكرِ الأشرارِ في ضمير الغَيبةِ إهمالٌ لشأنِهم

ضميرُ الغائبينَ في قولِهِ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ﴾ يرجعُ إلى (الظالمين) المذكورين في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾، وقد طويَ ذِكرُهم بِضميرِ الغائبينَ إبعادًا لهم، وإهمالًا لشأنِهم؛ لأنَّهم ليسوا جديرين بإظهارِ اسمِهم مرَّةً أخرى.

معنى (اللام) في الخبرِ ﴿لَآكِلُونَ﴾:

(اللام) في قولِهِ: ﴿لَآكِلُونَ مِنْهَا﴾ هي المزحلقة مفيدة التَّوكيد، والمعنى: فإنَّهم لآكلونَ منها، وداعي توكيدِ الأكل مِن تلك الشَّجرةِ – إضافةً إلى خُبْثِها – أنَّها تَخرجُ في أصل الجحيم.

سرُّ التَّعبيرِ بالأكل باسمِ الفاعلِ:

في التَّعبيرِ بالأكلِ ملْءِ البطونِ تصويرٌ للدَّناءَةِ المُزريةِ بأصحابِها

التَّعبيرُ بالأكلِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا﴾ يدلُّ على تفاقُمِ الضَّرورة الداعيةِ لَهم إلى ذلك الأكلِ الاضطراريِّ المَقيتِ؛ لأنَّ التَّعبيرَ بالأكلِ يَستلزم اطِّرادَ العادةِ ورَتابَة الحَدَث، وكأنَّهم صاروا في سواء الجحيم إلى هذا الحالِ الأليم، الدّائم عليهم إلى غير نهايةٍ، وصوغُ الأكلِ اسمَ فاعلٍ يَدعم تلك الدَّلالة، فـ ﴿لَآكِلُونَ﴾ يَدلُّ على دوامِ هذا الحالِ، واعتيادِهم إيّاه، حتى صارَ (أكلًا)، إلى ما في الأكلِ وملءِ البطونِ من تصويرٍ للدَّناءَةِ المزريةِ بأصحابِه.

معنى (مِنْ) في القيد ﴿مِنْهَا﴾:

(مِنْ) في قولهِ تعالى: ﴿لَآكِلُونَ مِنْهَا﴾ "ابتدائيَّةٌ، أو تبعيضيَّةٌ"[1]، تدلُّ على وفرة طلعها المُرِّ وثمرِها الكريهِ، حتى إنَّ بعضَها لكافٍ في ملءِ بطونِهم، وفيها إشارةُ الابتدائيَّة؛ إذ يبتدَئون الأكل ﴿مِنْهَا﴾، ثم يشربون على ما أكلوهُ من الحَميمِ المخلوطِ بالأقذارِ، كما تُفيدُهُ كلمةُ (شوب)، فيما سيأتي قريبًا إن شاء الله تعالى.

الكفّار يبتدِئون الأكـلَ مِـن ثمرِ الزَّقّوم المؤذي، وبعضه كافٍ في مَلء بطونِهم

نكتةُ التَّقييدِ بـ﴿مِنْهَا﴾، ولطيفة التَّكرار:

في تقييدِ أكْلِ الكفّارِ مِن ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ بالجار والمجرور ﴿مِنْهَا﴾، وتكرارهما في قولهِ تعالى: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ إلحاحٌ على أنَّها طعامُهم الوحيدُ، ويدعَمُ ذلك تقديمُ القيد ﴿مِنْهَا﴾ على المفعول في قوله: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾، أي: مالئون منها لا من غيرها البطون، وفي الحديث الشَّريف يقول رسولُ الله ﷺ: "أيُّها النّاسُ اتَّقوا الله، ولا تَموتُنَّ إلّا وأنتُم مُسلِمونَ؛ فلو أنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقّومِ قَطَرَتْ في الأرضِ؛ لأمَرَّتْ عَلى أهلِ الدُّنيا مَعيشَتَهُم، فَكيفَ بِمَن هو طَعامُهُ وشرابُهُ مِنهُ لَيسَ لَهُ طَعامٌ غَيرُهُ"[2].

شجرةُ الزَّقّوم طعامُ الكفّار الوحيد أو الأغلب في الآخرة

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَمَالِـُٔونَ﴾:

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾: "فاءُ التَّفريعِ، وفيها معنى التَّعقيب، أي: لا يلبثون أن تمتلِئَ بطونُهم مِن سرعةِ الالتقام، وذلك تصويرٌ لكراهتها فإنَّ الطَّعام الكريهَ كالدَّواء إذا تناوله آكِلُهُ؛ أسرع بِبلْعِهِ، وأعظَمَ لَقْمَهُ؛ لئلّا يستقرَّ طعمُهُ على آلةِ الذَّوق"[3]، كما تفيد (الفاء) أنَّ الجوعَ يَستبدُّ بهم، وأن النَّهَمَ يَتملَّكُهم؛ إذ إنَّ إيذاء بعضِ الزَّقّوم لا يكفُّهم، ولا توقفهم مرارةُ

الجـوعُ يَستبدُّ بالكفّار في النّار مهما أكلوا من الـزَّقّـوم؛ فلا تكُفُّهم مرارته، ولا حرارته

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 92.

(2) أحمد، المسند، برقم: (2735)، والترمذي، السنن، برقم: (2585)، والنسائي في السنن الكبرى، برقم: (11070)، وابن ماجه، السنن، برقم: (4325)، باختلاف يسير.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 125.

الأكل منه، ولا حرارته، ولا غُصَّتُه، ولا غيره من خصائصِ ثمار تلك الشَّجرة الملعونة، وإنَّما يتمادَوْنَ فيه وبِنَهَمٍ وسُرعة إلى أنْ تُملئ منهم البطونُ.

دلالةُ التَّعبيرِ في قوله: ﴿فَمَالِـُٔونَ﴾:

يدلُّ التَّعبيرُ بالمَلْءِ في قوله تعالى: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ على دلالتَين متوازيتَين: الأولى: بلوغُهم في الأكل حدَّ تعبئةِ البطونِ، حتّى لا يجدوا متَّسَعًا للتَّنفُّس، والثانية: إفساد هذا الأكلِ بطونَهم، وذلك أنَّ مِن معاني المادَّة اللُّغويَّة لـ (مالئون) التَّزكُّم، ففي مفردة (مالئون) معنى (مفسدون)، ولا شكَّ أنَّ فسادَ البطونِ واردٌ، بل حتميٌّ لمثل هذا الطَّعام الضارِّ.

أكْلُ الكفّارِ مِن الزَّقّوم بابُ عذابٍ، وهو مفسدٌ بطونَهم

وجهُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعل في: ﴿فَمَالِـُٔونَ﴾:

التَّعبيرُ بالخبرِ الاسم (مالئون) دونَ الفعلِ (فيملَؤون)، يقطع بِثُبوت ملئِهم بطونَهم مِن شجرةِ الزَّقّوم، وأنَّ وقوعَهُ منهم حتمٌ، كأنَّه قائمٌ الآنَ مع أنَّه يكون في المستقبل، أمّا الفعلُ (يملؤون)؛ فيخلو من القطعِ بالوقوع، ولا يعطي دلالةَ الثُّبوت والدَّوام.

ملءُ الكفّار من الزَّقّوم لا شكَّ فيه، وهو ثابتٌ دائمٌ لا ينقطع

نكتةُ تأنيثِ ﴿مِنْهَا﴾، و﴿طَلْعُهَا﴾ مذكَّرٌ:

جاء الضَّميرُ في القيد ﴿مِنْهَا﴾ مؤنَّثًا في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَأٓكِلُونَ مِنْهَا﴾ بعد سبق ﴿طَلْعُهَا﴾ مذكَّرًا في قولِه تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾؛ وذلك لِعَوْدِ "ضمير المؤنَّث للشَّجرة، أو لإضافتِهِ إلى المؤنَّث في ﴿طَلْعُهَا﴾، أو لتأويله بالثَّمرةِ، أو للشَّجرة على التَّجوُّز"[1]، وفي ذلك لطيفةٌ هي إفادةُ التَّنوُّع في المأكول، فيكون أكلُهم مِنَ الطَّلع ومن الشَّجرة معًا، واللّه تعالى أعلمُ.

تنوُّعُ المأكولِ الخبيث زيادةٌ في العذاب

بلاغةُ الكنايةِ ونكتة التعريف في ﴿ٱلْبُطُونَ﴾:

ذِكْرُ البطونِ هنا يطوي دلالة الذَّمِّ، ويُزْري بهم، ويَنشُر عليهم

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 93.

الإهانةَ، ويُلمَحُ إلى أنَّها ﴿ٱلۡبُطُونَ﴾ التي اعتادَت على الامتلاء مِن كلِّ ما يَلقاها حتى مِن ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾.

البطونُ الدَّنيئةُ في الدُّنيا تُعاقَب بـالـزَّقّـوم في الآخرة

و(ال) في ﴿ٱلۡبُطُونَ﴾ تعريفيَّة للعهد الذِّهني؛ إذ يضطرون إلى ملء بطونهم من هذا الثمر - مع نهاية خُشونته ونَتَنِه ومرارة طعمه - فإذا جوَّعهم اللّه الجوعَ الشديد فزعوا إلى إزالة ذلك الجوع بتناول هذا الطَّلع[1]، فيملؤون منه تلك البطون المعهودة المعروفة بالدَّناءة، وعدم تورُّعها عن أكل الحرام في الدُّنيا؛ فتُعاقَب بأكل ثِمار الزَّقّوم في الآخرة، وكما كانت تُتَرَعُ مِن أكلِ الحرامِ في الدُّنيا؛ فإنَّها تُتَرَع في العذاب الحالِّ بها مِن أكل طعام الأثيم في الآخرة، وتُعاقَب بأنْ يُفسِدها، ويؤذيها؛ فتَعْتَلَّ منه، وتَتَمَزَّقَ.

معنى ﴿ثُمَّ﴾ في: ﴿ثُمَّ إِنَّ﴾، وسرُّ إيثارِها:

التَّدرُّجُ في سُلَّم المعاناةِ، فشوبُ الحميم أبلغُ في الإيلامِ مِن ثَمَرِ الزَّقّوم

تنوُّعُ أسلوبِ النَّظم الكريم في استعمال حروفِ العطفِ هنا؛ إذ آثر هنا ﴿ثُمَّ﴾ بعد استعمال (الفاء) في قوله تعالى قبله: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ﴾، وذلك لمراعاةِ فَوارق الدَّلالات المقصودة، فكان مَلْءُ البطونِ فوريًّا مباشرًا للأكلِ، أمّا الشُّربُ؛ فمُتَراخٍ تراخيًا زمنيًّا؛ لذلك عطف هناك بـ (الفاء)، وهنا بـ ﴿ثُمَّ﴾؛ مراعاةً لتلك الدَّلالات.

كما تفيدُ ﴿ثُمَّ﴾ معنى التراخي الرُّتْبيِّ، أي: إنَّ شوب الحميم أبلغُ في الإيلام من ثمر الزَّقّوم، فتكون ﴿ثُمَّ﴾ للتَّدرُّج في سلَّم المعاناة، فـ "لمّا امتلأت بطونهم مِن ثمرةِ الشَّجرة، وهو حارٌّ؛ أحرقَ بطونهم، وعطَّشَهم، فأُخِّر سَقْيُهم زمانًا؛ ليزدادوا بالعطش عذابًا إلى عذابِهم، ﴿ثُمَّ﴾ سُقوا ما هو أحرُّ، وآلمُ، وأكرَهُ"[2]، فتضاعف عليهم العذابُ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 337، وابن عادل، اللباب: 16/ 315.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 107.

بلاغةُ توكيدِ الخبرِ في جملةِ ﴿إِنَّ لَهُمْ﴾:

المعاني المهمَّةُ لا يلائمها أنْ تُسْدَى إلى المخاطَب غفلًا مِن التَّوكيد

لا زالت تلك الأخبارُ بوصف عذابِ الكفار في الآخرة تتوالى مؤكَّدَةً؛ وذلك لأنَّها من الخطورةِ؛ إذ لا يلائمها أنْ تُسْدَى إلى المخاطَب غفلًا مِن التَّوكيد، إلى ما في ذلك التَّوكيد المتابِع من تنبيهٍ للغافل، وتحذيرٍ للجاحد، كما أنَّ فيها قطعًا بحصول مضمون الخبر؛ فلا شكَّ في أنَّهم شاربون - على أكلِهم من شجرةِ الزَّقّوم - أخلاطًا مِنَ الصَّديد الحميم، ومن غيره ممّا تواتر ذكرُهُ في الوحيين الشَّريفين.

معنى (اللام) في المتعلِّق ﴿لَهُمْ﴾، ونكتة تقديمه:

اختصاصُهم بذلك الشَّوب الملتهب عقوبة لهم؛ على وجه القَصْر الإضافي

(اللام) في المتعلِّق ﴿لَهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ لام الاختصاص، فهم يُختصّون بذلك الشَّوب الملتهِب عقوبة لهم وجزاء وِفاقًا، وقد ناسَب دلالةَ الاختصاص هنا تقديمُ القيد ﴿لَهُمْ﴾ على المسندِ إليه ﴿لَشَوْبًا﴾؛ لإفادةِ معنى القصر الإضافي، فهم فقط دونَ المؤمنين الصادقين ﴿ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ - السّابق ذكرُهم في قصَّة القرين - مَن يُختصّون بشربِ ذلك الشَّوبِ الأليم، وهم بخاصَّة مَن يُهانون به.

معنى (على)، ونكتة التَّقييد به:

في شربِ الكفّارِ الحميمَ - زيادةً على الأكل من الزَّقّوم - تناسُبٌ لكفرهم

(على) في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا﴾ تفيدُ معنى المصاحبةِ، أي: إنَّ لهم - إضافةً إلى معاناة الأكلِ مِن شجرة الزَّقّوم - شرابًا مغليًّا قَذِرًا يقطِّع الأمعاء، وفي اللام كذلك معنى الزّيادة، أي: ينالهم من العذابِ - زيادةً على الأكل من شجرة الزَّقّوم - شرابٌ أليمٌ بَلَغَ درجة الحميم، و"يُمْزَج لَهُم الزَّقّوم بالحميم؛ ليجمعَ لهم بين مرارة الزَّقّوم وحرارة الحميم؛ تغليظًا لعذابِهم وتشديدًا لبلائهم"[1]،

(1) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 52.

وبذلك "يكونون جامعين بين أكل الطَّعام الكريهِ البَشِع وشربِ الشَّراب الأكره الأبشع"[1]، وفي ذلك مزيدُ إيلامٍ وإهانةٍ؛ إذ يلائم كفرَهم بالخالق العظيم، وما أخبرهم به من بعثٍ وحسابٍ.

مرجعُ الضَّميرِ في ﴿عَلَيْهَا﴾، ونكتة التقديم:

في ذِكرِ المحذور ضميرًا إقصاءٌ لِخطرِهِ، وتقديمه قيدًا يَلفِت إلى شرِّهِ

الضَّميرُ في القيد ﴿عَلَيْهَا﴾ يعود إلى ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾، ويُلمَحُ في إعادة ذكرِها بالإضمارِ إبعادٌ لها، وتنفيرٌ من خطرِها؛ فقد أُعيد ذِكرُها بالإضمارِ في هذا السّياق ستَّ مرّات تقريبًا، وطال السّياقُ بلا إظهارٍ لها بعد أوَّل مرَّةٍ؛ دعمًا لتلك الدَّلالة، وفي تقديم القيد بالجارِّ والمجرور ﴿عَلَيْهَا﴾ على المسندِ إليه ﴿لَشَوْبًا﴾ تنبيهٌ إلى مضاعفة العذابِ، ومُفاقَمَة أنواعِهِ على (الظالمين) خارجيًّا وداخليًّا، طعامًا وشرابًا، ومضاعفة أسباب إيلامِهِ وإهانته عليهم.

معنى (اللام) في المسندِ إليهِ ﴿لَشَوْبًا﴾:

تأكيدُ خبثِ العذابِ زيادةُ تحذيرٍ منهُ

(اللام) في قوله تعالى: ﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ لامُ التوكيد، وبذكرها تترجمُ عناصرَ التَّوكيد المتزاحمة في هذا السّياق تزاحُم أنواع الشَّرِّ والضُّرِّ على الظّالمين - ومنهم ذلك القرينُ الكافر - في سواء الجحيم.

براعةُ التَّعبيرِ بـ ﴿لَشَوْبًا﴾، ولطيفة تنكيره:

تصويرُ شرابِ أهلِ الجحيم وبشاعته

للتَّعبيرِ بمفردة ﴿لَشَوْبًا﴾ في هذا الموضعِ براعةٌ لا تتأتَّى بغيرِهِ؛ لأنَّ ﴿لَشَوْبًا﴾ يصوِّر شرابًا "ممزوجًا بماءٍ شديد الحرارة، وهذا الشَّراب هو الغَسّاق، أي: ما يَقْطر من جِراحِ أهلِ النّار وجلودِهم..."[2].

معنى ﴿مِّنْ﴾ في القيد بـ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾:

بيانُ شرابِ أهلِ الجحيم المخلوط بأخلاطٍ قذرةٍ سامَّةٍ

﴿مِّنْ﴾ في القيد ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ بيانيَّة، تبين عن نوعٍ بعض الأخلاطِ التي يشربُها الظّالمون على أكلِهم ومَلْئِهم بطونَهم من شجرة الزَّقّوم،

(1) حقي، روح البيان: 7/ 465.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 93.

وأنَّها مِن ماءٍ ملتهِبٍ، مشوبٍ بأخلاطٍ مِن القاذوراتِ، "يُمزَج لهم الحميمُ بصديدٍ وغسّاق ممّا يسيلُ من فروجِهم وعيونِهم"[1]، فاجتمع فيه السّوءُ مِن كلِّ الجهاتِ وبجميع الاعتباراتِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿حَمِيمٍ﴾، ونكتة التَّنكير فيه:

حـمـيـمُ أهـلِ النّـار أُعِـدَّ لهم إعـدادًا؛ ليكونَ على أبلغ وجوهِ الإيلام والإيذاء

"الحميم الماء الحارُّ الذي قد انتهى حرُّهُ، أي: شرابًا من دمٍ أو قيحٍ أسودَ أو صديدٍ ممزوجًا مشوبًا بماء حارٍّ غايةَ الحرارةِ يقطع أمعاءهم"[2]، فالتَّعبيرُ به في قولهِ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ يدلُّ على بلوغ تلك الأخلاطِ نهايةَ الإيلامِ والمضرَّة، وصوغُ ﴿حَمِيمٍ﴾ على صيغةِ (فعيل) يُبَيِّنُ شدَّة خطورتِه، و(فعيل) فيه بمعنى (مفعول)، أي: إنَّه أُعِدَّ لهم على أبلغ وجوهِ الإيلام والإيذاء، و"عن رسول اللهِ ﷺ أنَّه كان يقول: "يُقَرَّبُ - يعني: إلى أهل النّار - ماءٌ، فيتكرَّهه، فإذا أُدني منه شَوى وجهه، ووقعت فزْوةُ رأسِه فيه، فإذا شربَهُ؛ قطَّع أمعاءَهُ حتّى تخرجَ من دبرِه"، ويقولُ ﷻ: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد: 15]، ويقول: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ [الكهف: 29][3].

معنى ﴿ثُمَّ﴾ في ﴿ثُمَّ إِنَّ﴾، ولطيفة تَكرارِها:

التَّراخي الزَّمنيُّ والرُّتْبيُّ المؤذنانِ بتطاول أزمان التَّعذيب وتكاثُر أسبابِهِ على الكفّارِ

تدلُّ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ على التَّراخي الزَّمنيِّ والرُّتْبيِّ المؤذِنَين بتطاول أزمانِ التَّعذيب وتكاثُر أسبابِهِ على الكفّار في الآخرةِ، وأنَّهم يُعانون ثِقَلَ الوقتِ، قَصُرَ أم طالَ، ويُعانون كثرةَ أسبابِ العذاب وأنواعه، فـ"إنَّهم يُخرَجون من مقارِّهم في الجحيم - وهو الدَّركات التي أُسكِنوها - إلى شجرة الزَّقّوم، فيأكلون منها إلى أن يَتَملَّوا، ويشربون بعد ذلك، ثم يُرجعون

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 21.
(2) حقي، روح البيان: 7/ 465.
(3) أحمد، المسند، برقم: (22285)، والترمذي، السنن، برقم: (2583)، والنسائي في السنن الكبرى، برقم: (11263)، وينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 21.

إلى دركاتِهم، كما تورَدُ الإبلُ، ثمّ تُرَدُّ إلى وطنِها، ومعنى التَّراخي في ذلك ظاهرٌ"[1].

دلالةُ تكرارِ ﴿إِنَّ﴾ في: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾:

من الأخبارِ ما هو جديرٌ بالتَّنبيه إليه والتَّأكيد عليه بغضِّ النَّظر عن المنكِر

يدلُّ تكرارُ أداةِ التَّوكيد ﴿إِنَّ﴾ على شدَّة الجَزْم بحصول تلك المعاناة كلِّها للظّالمين في النّار، وتعمل ﴿إِنَّ﴾ على انتزاع كلِّ شكٍّ في حصول ذلك، إلى ما فيه مِن إضفاءِ الخطورة على الخَبَرِ؛ إذ إنَّه خبرٌ جديرٌ بالتَّنبيه إليهِ وتأكيده لخطورتِه، كما يقول ابن حجر: "وقد يكون التَّأكيدُ من جهةِ أنَّ القضيَّةَ في نفسِها ممّا يهتمُّ به، وإن لم يكن هناك منكرٌ"[2].

غرضُ التَّعبيرِ بالمرجعِ في الآية:

أحوالُ تعذيبِ الكفّار تتوالى عليهم، ولا إرادة لهم في التَّحوُّل عنها

عبَّر السياقُ الكريم بالمرجعِ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ مِن الرَّجوع، وهو يعني مكانَ العودِ إلى ما كانوا عليه من قبل الوضعِ الحالي، مع أنَّهم لا يُغادِرون الجحيمَ أصلًا؛ ليُرجَعوا إليه، وعلى ذلك يحمل الرُّجوع على الاستعارة "للانتقال مِن حالةٍ طارئةٍ إلى حالة أصليَّة تشبيهًا بمغادرة المكان ثمَّ العودُ إليه"[3]، ويحتمل أن يكون لهم انتقالُ أجسادٍ في وقت الأكل والشُّرب، ثم يرجعون إلى معظمِ الجحيم وكثرتِه، وشُبِّه بقوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن: 44]، ويحتمل أن يكونَ الرُّجوع إنَّما هو من حال ذلك الأكلِ المعذِّب إلى حال الاحتراقِ دون أكلٍ، وبكلٍّ احتمالٍ قيل[4].

والكفّار "لا يَرجعون بأنفسِهم، ولكن يُردّون فيها، كقوله: ﴿ٱدْخُلُوٓا

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 603.
(2) ابن حجر، فتح الباري: 1/ 74.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 121.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 476.

أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ [غافر: 76]، هم لا يَدخلون فيها، ولكن يُدْفعون فيها"[1]، فـ "يُذهَب بهم عن مقارِّهم ومنازلهم في الجحيم - وهي الدركات الَّتي أسكنوها - إلى شجرةِ الزَّقّوم ﴿فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ﴾، فيأكلونَ إلى أن يمتلِئوا، ويسقون بعد ذلك، ثم يُرْجَعون إلى دركاتِهم"[2].

سرُّ الإضافةِ في ﴿مَرۡجِعَهُمۡ﴾:

مرجعُ الكفّارِ إلى الجحيمِ مختصٌّ بهم، وهم به جديرون

إضافةُ مرجعٍ إلى ضمير الظّالمين (هم)، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ﴾ يبيِّن أنَّ مرجعًا كهذا لا يليقُ إلّا بهم، وإنَّهم لا يليقون إلّا بهِ، فالإضافةُ في ﴿مَرۡجِعَهُمۡ﴾ إضافةُ تخصيصٍ، وبيان أنَّه مرجع خاصٌّ بهم، مُعَدٌّ خصّيصًا لهم.

معنى (اللام) في قوله: ﴿لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ﴾:

تأكيدُ أنَّ مصيرَ الكفّار إلى الجحيم

(اللام) في قولهِ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ﴾ لامُ التَّوكيد الَّتي تحرَّكت، وزُحلقت من المبتدأ إلى الخبر، وهكذا تتوالى أدوات التَّوكيد على تحقيق ذلك الوعيدِ المخيف للظّالمين من الكافرين باللّه تعالى، المنكرين اليوم الآخر والحساب، ولا يزال النَّظمُ الكريم يدعم تلك الأخبارَ المرعبةَ وفاء بهول مضامينها، وحُقَّ لها ذلك، فما أعجبَ من حال ناسٍ يسمعون هذا، ولا يتأثَّرون به على ما فيه من وعيد شديد!

معنى (إلى) في قوله: ﴿لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ﴾:

الكفّارُ لا يغادرون النّار؛ بل يُرَدَّدون بين أوديتها لا إلى نهايته

(إلى) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ﴾ تفيد انتهاءَ الغايةِ - غاية كلِّ رحلة تعذيبٍ - وأنَّهم منها يبدؤون دورةَ عذابٍ جديدة، وإليها يُرجَعون، وإن لم يغادروها، فيُرَدَّدون بين أوديتها، ويُنَزَّلون في منازلها وهكذا لا إلى نهاية، والعياذُ باللّه من حال أهلِ النّار.

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 568.
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 126.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النُّزل والسَّكن:

النُّزل الضيافة، والسَّكن محلُّ الإقامة

النُّزُل: ما هُيِّئَ لِلضَّيفِ؛ إذا نَزَلَ عَلَيهِ، ويقالُ: إنَّ فُلانًا لَحَسَنُ النُّزْل والنُّزُل، أي: حَسَنُ الضّيافَةِ، وقَولِهِ تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾، أي: أذلك خَيْرٌ في بابِ الأنزال الَّتي يُتَقَوَّت بِها وتُمْكِن مَعَها الإقامةُ، أم نُزُل أهلِ النّار؟ وفي الحَديث: "اللَّهُمَّ إنّي أسألك نُزلَ الشُّهَداءِ"[1]، يُريدُ ما لِلشُّهَداءِ عِندَ اللَّهِ مِنَ الأجر والثَّوابِ؛ والمَنزِل والمَنزِلَة: مَوضِعُ النُّزول[2].

وَسكن بِالمَكانِ يسكن سُكْنًى وسكونًا: أقامَ، فَهوَ ساكنٌ، من قوم سكّان، والسَّكن أيضًا: سُكْنى الرَّجل في الدّار، يُقال: لَك فيها سكنٌ، أي: سُكْنى، والسَّكن، والمسكن: المنزل، الأخيرَة نادرة، والسَّكن: أهل الدّار، اسم لجمع ساكن، كشارب وشرب[3].

الفتنة والابتلاء والامتحان:

الفتنةُ أشدُّ الاختبارِ وأبلغُهُ، وتكون في الخيرِ قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ [التغابن: 15]، وقال تعالى: ﴿لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ [الجن: 16 - 17]، فجعل النِّعمةَ فتنةً؛ لأنَّه قصد بها المبالغةَ في اختبار المنعَم عليه بها، كالذَّهب إذا أُريدَ المبالغة في تعرُّف حالِهِ؛ أُدخِل النار[4].

الفتنةُ أشدُّ الاختبارِ، والابتلاء بتحميل المكارهِ، والاختبار بالمكروه والمحبوبِ

والابتلاءُ يكون بتحميلِ المكارهِ والمشاق، والاختبار بذلك وبِفعل المحبوب، يقال: اختبرَهُ بالإنعام عليه، ولا يقال: ابتلاهُ بذلك، ولا هو مبتلًى بالنِّعمة، وقد يقال: اختبرَهُ بالإنعام عليه، ولا يقال:

(1) البزار، مسند البزار، مسند ابنِ عبَّاسٍ ﷺ: 11/ 386، برقم: (5234).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (نزل).
(3) ابن سيده، المُحكم: (سكن).
(4) بإشراف الشيخ صالح بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم: 1/ 8.

ابتلاهُ بذلك، والابتلاء يقتضي استخراجَ ما عند المبتلَى من الطّاعة والمعصية[1].

الأصْل والقعر:

الأصْلُ جمعه أُصول، وهو الأساس الَّذي يُقام عليه أوَّل الشَّيء ومادَّته التي يتكوَّن منها، قال تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ [الحشر: 5]، والأصْلُ، أي: الجِذْر، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ [إبراهيم: 24][2].

الأصل الأساس، والقعر أقصى العمق

وقَعْرُ كلِّ شَيء: أقصاه، وجمعه: قُعور، ونهر قَعير: بعيد القَعْرِ، وقَعَر البِئرَ يَقعَرُها قَعرًا: انتهى إلَى قَعْرِها، وكذلكَ الإناءُ؛ إذا شربت جَميع ما فيهِ، حَتَّى تَنتَهي إلى قَعرِهِ، وقَعَرَ الثَّريدة: أكلَها مِن قَعْرِها، وقَعَّر في كَلامه، وتَقَعَّر: تشدَّقَ، وتكلَّم بأقصى قعْرِ فَمِهِ، وقيل: تكلَّم بأقصى حلقه[3].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 10.
(2) عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (أصل).
(3) ابن سيده، المحكم: (قعر).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والأربعون،
سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والأربعون، سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 48 ، 810 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-07-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 48 : المجلد الثامن والأربعون، سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-07-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1101030 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»